واعظ المنصور

[من اهل الحق رجالٌ يجلوهم الحق كجلاء السيوف ؛ حتى يستوي عندهم هام الناس من الملوك بأذنابهم من السوقة والعامة ، فاذا وقفوا بين يدي الملوك ارسلوا عليهم من مواعظهم شواظاً من نارٍ تحرق ضعاف الملوك ، فهم فيها كيابس الحطب ، وتنقي كرامهم ، فهمٌ فيها كالذهب ، لا يزدادُ على النارِ الاّ بهاءً وصفاءً . وهؤلاء الرجالُ من الحياة بمنزلة الملوك ، لانهم همُ ساسة الحقّ والقائمون بأمره في هذه الدنيا . وواعظ المنصور هو امامٌ من ائمة هؤلاء الافذاذ]

بينما المنصور يطوف ليلاً إذ سمع قائلاً يقول :

اللهمّ اني اشكو اليك ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع

فخرج المنصور ناحية من المسجد وأرسل الى الرجل يدعوه ، فصلى الرجل ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة

فقال المنصور : ما الذي سمعتك تذكر من ظهور البغي والفساد في الارض وما يحول بين الحق وأهله من الطمع ؟ فوالله لقد حشوتَ مسامعي ما ارمضني

قال : يا امير المؤمنين ان أمّنتني على نفسي أنبأتك بالامور من اصولها ، والاّ احتجزت منك واقتصرت على نفسي ففيها لي شاغل ، فقال :

أنت (آمنٌ) على نفسك (فقل) ، فقال : إن الذي دخله الطمع حتى حال بينه وبين ما ظهر من البغي والفساد لأنتَ

قال : ويحك وكيف يدخلني الطمع والصفراء والبيضاء في قبضتي والخير والحامض عندي !

قال : وهل دخل احداً من الطمع ما دخلك ! إن الله تبارك وتعالى استرعاك المسلمين وأموالهم فأغفلت امورهم واهتممت بجمع اموالهم ، وجعلت بينك وبينهم حجاباً من الجص والآجر وأبواباً من الحديد وحجبة معهم السلاح ثم سجنت نفسك فيها عنهم ، وبعثت عمالك في جباية الاموال وجمعها ، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع ، وأمرت بألاّ يدخل عليك من الناس الاّ فلان وفلان نفر سميتهم ، ولم تأمر بايصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العاري ولا الضعيف الفقير ولا احداً الاّ وله في هذا المال حقٌّ

فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك وآثرتهم على رعيتك وأمرت الاّ يحجبوا عنك ، تجبي الاموال وتجمعها ولا تقسمها قالوا : هذا قد خان الله فما بالنا لا نخونه وقد سجن لنا نفسه ! فأغروا بألاّ يصل اليك من علم اخبار الناس شيء الاّ ما ارادوا ، ولا يخرج لك عامل فيخالف امرهم إلاّ قصموه عندك ونفوه حتى تسقط منزلته ويصغر قدره ، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم ، اعظمهم الناس وهابوهم ، فكان اول من صانعهم عمالك بالهدايا والاموال ليقووا بها على ظلم رعيتك ، ثم فعل ذلك ذوو القدرة والثروة من رعيتك لينالوا به ظلم من دونهم ، فامتلأت بلاد الله بالطمع بغياً وفساداً ، وصار هؤلاء القوم شركاءك في سلطانك وأنت غافل فان جاء متظلم حيل بينه وبين دخول مدينتك ، فان اراد رفع قصته اليك عند ظهورك وجدك قد نهيت عن ذلك ، وأوقفت للناس رجلاً ينظر في مظالمهم فان جاء ذلك الرجل فبلغ بطانتك (خبره) سألوا صاحب المظالم ألا يرفع مظلمتهُ اليك ، فان المتظلم منهُ له بهم حرمة ، فأجابهم خوفاً منهم فلا يزال المظلوم يختلف اليه ويلوذ به ويشكو ويستغيث وهو يدفعهُ ويعتل عليه ، فاذا اجهد وأحرج وظهرت ، صرخ بين يديك ، فضرب ضرباً مبرحاً ، ليكون نكالاً لغيره ، وأنت تنظر فلا تنكر ، فما بقاء الاسلام على هذا !

وقد كنت يا امير المؤمنين (اسافر) الى الصين فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسمعه ، فبكى يوماً بكاء شديداً فخفّ جلساؤه على الصبر فقال : أما اني لست ابكي للبلية النازلة بي ، ولكني ابكي لمظلوم بالباب يصرخ ولا اسمع صوته ثم قال : أما اذ ذهب سمعي فان بصري لم يذهب ، فادوا في الناس ألاّ يلبس ثوباً احمر إلاّ متظلم ، ثم كان يركب الفيل طرفي نهاره ، وينظر هل يرى مظلوماً

فهذا يا امير المؤمنين مشرك بالله غلبت رأفته بالمشركين شح نفسه وأنت مؤمن بالله ثم من اهل بيت نبيه لا تغلب رأفتك بالمسلمين على شح نفسك ، فان كنت انما تجمع المال لولدك ، فقد اراك الله عبراً في الطفل يسقط من بطن امه وما له على الارض مال ، وما من مال الاَّ ودونه يد شحيحة تحويه فما يزال الله يعطف بذلك الطفل حتى تعظم رغبة الناس اليه ، ولست بالذي تعطي بل الله يعطي من يشاء ما يشاء ، وان قلت انما اجمع المال لتشديد السلطان فقد اراك الله عبراً في بني امية : ما اغنى عنهم ما جمعوا من الذهب والفضة وأعدوا من الرجال والسلاح والكراع حتى اراد الله بكم ما اراد ، وان قلت انما اجمع المال لطلب غاية هي اجسم من الغاية التي انا فيها ، فوالله ما فوق ما أنت فيه الاَّ منزلة لا تدرك الاَّ بخلاف ما انت عليه يا امير المؤمنين ، هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل

قال المنصور : لا ، قال : فكيف تصنع بالملك الذي خولك ملك الدنيا وهو لا يعاقب من عصاه بالقتل ! ولكن بالخلود في العذاب الاليم ، قد رأى ما قد عقد عليه قلبك وعملتهُ جوارحك ونظر اليه بصرك واجترحتهُ يداك ومشت اليه رجلاك ، هل يغني عنك ما شححت عليه من ملك الدنيا اذا انتزعهُ من يدك ودعاك الى الحساب

فبكى المنصور وقال : يا ليتني لم أخلق ! ويحك ! فكيف احتال لنفسي

قال . يا امير المؤمنين إن للناس اعلاماً يفزعون اليهم في دينهم ويرضون بهم فاجعلهم بطانتك يرشدوك ، وشاورهم في امرك يسددوك

قال : قد بعثت اليهم فهربوا مني

قال : خافوا ان تحملهم على طريقتك ولكن افتح بابك وسهّل حجابك وانصر المظلوم واقمع الظالم وخذ الفيء والصدقات مما حل وطاب واقسمهُ بالحق والعدل على اهله وأنا الضامن عنهم ان يأتوك ويسددوك على صلاح الامة . وجاء المؤذنون فصلوا عليه فصلى وعاد الى مجلسه وطُلب الرجل فلم يوجد